﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾ [يونس: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

سفاهةُ طلبِهم أن يبدّلَ الرّسولُ القرآنَ، مع أنّه نشأَ بينهم لا يقرأُ ولا يكتبُ

لَمّا بيَّنَ اللّه ﷻ في الآيةِ السّابقةِ، أنَّ القومَ إنَّما التمسوا منه ذلكَ الالتماسَ؛ لأجلِ أنَّهمُ اتَّهموهُ بأنَّه هو الَّذي يأتي بهذا الكتابِ من عندِ نَفسِه، على سبيلِ الاختلاقِ والتّزييفِ، لا على سبيلِ كونِه وَحيًا من عندِ اللّه الخبيرِ اللّطيفِ، فلهذا المعنَى احتَجَّ النَّبيُّ ﷺ على فسادِ هذا الوَهمِ بما ذكَرَهُ اللّه تعالى في هذه الآيةِ، وتَقريرُه أنَّ أولئكَ الكفّارَ كانوا قد شاهدوا رسولَ اللّه ﷺ من أوَّلِ عُمُرِه إلى ذلكَ الوقتِ، وكانوا عالمينَ بأحوالِه، وأنَّه ما طالَعَ كتابًا ولا تتلَمَذَ لأُستاذ، ولا تعلَّمَ من أحدٍ، ثمَّ بعدَ انصرامِ أربعينَ سنةً على هذا الوَجهِ جاءَهم بالكتابِ العظيمِ المُشتَمِلِ على نفائسِ علمِ الأصولِ، ودقائقِ علمِ الأحكامِ، ولطائفِ علمِ الأخلاقِ، وأسرارِ قَصَصِ الأوَّلينَ، وعَجزَ عن مُعارضتِه العلماءُ والفُصحاءُ والبُلَغاءُ، وإنّ كلَّ من له عقلٌ سليمٌ، يعرفُ أنّ مِثلَ هذا لا يحصُلُ إلّا بالوَحيِ والإلهامِ، منَ اللّه تعالى ذي الجلالِ والإكرامِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَدۡرَىٰكُم﴾: الدِّرايةُ: المعرفةُ المُدرَكةُ بِضَربٍ منَ الحِيَل، يُقالُ: دَرَيْتُه، ودَرَيْتُ به، دِرْيةً، قالَ تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [الشّورى: 52]، وكلُّ موضعٍ ذُكِرَ في القرآنِ: (وما أدراكَ) فقد عقَّبَ ببيانِه، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/225 - 226، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/88 - 89.

ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: 2 - 3]، وما في الآيةِ هنا: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ من قولِهم: دَرَيْتُ، وكلُّ موضعٍ ذُكِرَ فيه: (وما يُدريكَ) لم يُعقِّبْه بذلك نحو: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ [عبس: 3]، والدِّرايةُ لا تُستعمَلُ في اللّه تعالى؛ لأنَّه يسبقُها الجهلُ. وتدرَّيْتُ؛ أي: تعلَّمتُ لِدَرْيَتِه أين هو، يُقال: دَريتُ الشَّيء، وفُلانٌ حَسَنُ الدَّريَة، كقولكَ: حسَنُ الفِطنة[1]، وقولُه تعالى هنا: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾؛ أي: ولا أَعلَمَكُم به[2].

2) ﴿لَبِثْتُ﴾: أصلٌ يدلُّ على تمكُّثٍ، يُقالُ: لَبِثَ بالمكان: أقامَ به ملازمًا له، اللّبث: المكث. والفعل: لبث، قال اللّه تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ [النّبأ: 23][3]، وما لبثَ أن أنْ فعلَ كذا وكذا؛ أي: ما نكل، وفي التّنزيل: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩﴾ [هود: 69][4]، ومنه هنا قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾؛ أي: نَشأتُ وأَقمتُ فيما بينكم عُمُرًا من قبلِه[5].

3) ﴿عُمُرًا﴾: العَمرُ والعُمُرُ: اسمٌ لمدَّةِ عِمارةِ البَدَنِ والحياة، فهو دونَ البقاء، فإذا قيل: طالَ عُمُرُه، فمعناه: عِمارةُ بدنِه بروحِه، والتَّعميرُ: إعطاءُ العُمُرِ بالفعل، أو بالقولِ على سبيل الدُّعاء، قالَ تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ [فاطر: 37]. وعَمَّرَكَ اللّه؛ أي: سألتُ اللّه عُمُرَك، وخُصَّ ههنا لفظُ عُمُرٍ لمّا قُصِدَ به قصدُ القَسَم[6].

وقولُه تعالى هنا: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾؛ أي: أَقمتُ فيما بينَكم زمانًا طويلًا أربعونَ سنةً من قَبلِ القرآنِ، تعرفونني بالصِّدقِ والأمانةِ، لستُ ممَّن يقرأُ ولا ممَّن يكتُب[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخاطِبُ اللّه ﷻ نبيَّه ﷺ آمرًا إيّاه أنْ يردَّ على المشركين: قلْ لهم يا محمَّدُ ﷺ: إنَّ هذا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (درى).
(2) السِّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 106، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/110.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لبث).
(4) ابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (لبث).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/372، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/606.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عمر).
(7) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/606.

الكلامَ ليس من قِبَلي ولا من عندي، ولا أَقدِرُ أن أَفْتريَه على اللّه، ولو كانَ ذلكَ مقدورًا لي لكانَ مقدورًا لِمن هو من أهلِ العلم والكتابةِ ومخالطةِ النّاسِ والتَّعلُّم منهم، ولكنَّ اللّه بعثَني به، ولو شاءَ سُبحانَه لم يُنزلْه ولم يُيَسِّرْه بلساني، فلم يدَعْني أَتْلوهُ عليكم، وأن أُعلمكم به أَلْبَتَّةَ، لا على لساني ولا على لسانِ غيري، ولكنَّه أَوحاهُ إليَّ، وأَذِنَ لي في تلاوتِه عليكم، وأَدراكم به بعدَ أن لم تكونوا دارينَ به، فلو كانَ كَذِبًا وافتراءً كما تقولونَ لأَمكنَ غيري أنْ يتلوَه عليكم، وتَدرونَ به من جهتِه؛ لأنَّ الكذبَ لا يَعجَزُ عنه البشرُ، وأنتُم لم تَدروا بهذا ولم تَسمعوه إلّا منِّي، ولم تَسمعوه من بشرٍ غيري[1].

لولا مشيئةُ الله ما نزلَ الوحي، ولو كان الرّسولُ مدّعيًا لتنبّأَ فيما لبثَه قبلَ ذلك

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الفصلِ في: ﴿قُل﴾:

لَمّا جاءَ الجوابُ هنا مُستقلًّا عن معنًى قصدَه المشركونَ من كلامِهم، جاءَ الأمرُ به مفصولًا عن الأوَّلِ: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، غيرَ معطوفٍ عليه، تنبيهًا لاستقلالِه، وأنَّه ليس بتكملةٍ للجوابِ الأوَّلِ، وفي هذا الجوابِ استدلالٌ على أنَّه مُرسَلٌ من اللّه تعالى، وأنَّه لم يَختلقِ القرآنَ من عندِه.

استقلالُ الجوابِ من حكمةِ البيانِ القرآنيِّ؛ لإبرازِ بعضِ المعاني

كذلك فإنَّ في هذا الأمرِ المُستقلِّ مع كونِه داخلًا تحتَ الأمرِ السّابقِ، إظهارًا لكمالِ الاعتناءِ بشأنِه، وإيذانًا باستقلالِه مفهومًا وأسلوبًا، فإنَّه برهانٌ دالٌّ على كونِه بأمرِ اللّه ومشيئتِه[2].

سرُّ استعمالِ فعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾:

افتتحَ النّظمُ الكريمُ الجملةَ بفعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾؛ للدّلالةِ على الاهتمامِ بالمقولِ، تأكيدًا على أنَّه لم يَختلقِ القرآنَ من عندِه، كذلك فإنَّ في هذا الأمرِ المستقلِّ مع كونِه داخلًا تحتَ الأمرِ السّابقِ،

بلاغةُ القرآنِ لا يمكنُ إلّا بمقولِ الرّسولِ ﷺ

(1) ابن القيّم، التِّبيان في أقسام القرآن، ص: 116 - 117، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/372.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/119 - 120.

إظهارًا لكمالِ الاعتناءِ بشأنِه، وإيذانًا باستقلالِه مفهومًا وأسلوبًا، فإنَّه برهانٌ دالٌّ على كونِه بأمرِ اللّه ومشيئتِه[1].

تقديرُ النّداءِ المتضمَّنِ في فعل الأمرِ ﴿قُل﴾:

المبالغةُ في التَّبرئةِ من سفهِ المشركين، وأنَّ بلاغَ القرآنِ بمشيئةِ الرّحمن

تقديرُ النِّداءِ المتضمَّنِ في فعل الأمرِ ﴿قُل﴾؛ أي: (قلْ يا محمَّدُ ﷺ)، فيه مبالغةٌ في التَّبرئةِ ممّا طلبوا، وتأكيدٌ لأمرٍ في غايةِ الأهمّيَّة، وهو أنَّ تلاوتَه هذا القرآنَ عليهم، إنَّما هو بمشيئةِ اللّه تعالى، وإحداثِه أمرًا عجيبًا خارجًا عنِ العادات؛ أنْ يخرجَ رجلٌ لم يتعلَّم، ولم يخالطِ العلماءَ؛ بل نشأَ في بلدةٍ خَلتْ منهم، فيقرأُ عليهم كتابًا فصيحًا يُبهِرُ عقلَ كلِّ فصيحٍ، ويَعلو على كلِّ مَنثورٍ ومَنظوم، مشحونًا بعلومٍ شتّى من نحو: علومِ الأصولِ والفروع، وأخبارِ ما كانَ وما يكون، ناطقًا بالغُيوبِ الَّتي لا يعلمُها إلّا اللّه تعالى، وقد بلغَ بين ظَهرانيهم أربعينَ سنةً لا يَخفَى عليهم شيءٌ من أَحوالِه وأَسرارِه، وما سمعوا منه حَرفًا من ذلك[2].

دَلالةُ حرفِ الشَّرطِ: ﴿لَّوْ﴾:

تلاوةُ الرَّسولِ ﷺ للقرآنِ مُتعلِّقةٌ بالمشيئةِ الإلهيَّةِ وجودًا وعَدَمًا

افتتحَ النّظمُ الكريمُ قولَه: ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ بـ(لو) الشّرطيّة، وهي حرفُ شرطٍ غير جازم، ويُعرفُ عند النّحاةِ بأنّه حرفُ امتناعٍ لامتناع؛ أي: امتناعُ نَفيِ التِّلاوة بامتناعِ مشيئةِ اللّه؛ أي: لو شاءَ اللّه أن لا أَتلوَه عليكم ما تلَوتُه، وبُنِيَ الاستدلالُ هنا على عدمِ مشيئةِ اللّه على نفيِ تلاوتِه؛ لأنَّ ذلك مُدَّعَى الكفّارِ لزعمِهم أنَّه ليس من عندِ اللّه، وكأنَّه قالَ لهم: لو شاءَ اللّه أنْ لا آتيَكم بهذا القرآنِ لما أرسلَني به ولا تلوتُه عليكم، ولكنَّ اللّه شاءَ أن يوحيَ إليَّ بهذا القرآنِ، وأنْ أتلوَه عليكم[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/119 - 120.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/25.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/25، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/120.

نكتةُ جوابِ لازم اقتراحِهم من قَبْلُ بمقول الفعلِ ﴿قُل﴾:

البرهانُ بأنَّ النُبوَّة وإنزالَ الفرقان بأمرِ الّذي علّمَ القرآنَ

الجوابُ هنا جوابٌ عن لازمِ اقتراحِهم، وكنايتِهِ عن رميهمُ الرَّسولَ ﷺ بالكذبِ عنِ اللّه فيما ادَّعَى من إرسالِه وإنزالِ القرآنِ عَليه. ولذلك جاءَ الاستقلالُ بالمفهومِ والأسلوبِ في هذا الأمرِ ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ عنِ الأمرِ السّابقِ؛ ليكونَ بُرهانًا دالًّا على كونِه بأمرِ اللّه تعالى ومشيئتِهِ فَحَسْب، وما سبقَ مجرَّدُ إخبارٍ باستحالةِ ما اقترَحوه[1]، وهو يخاطبُهم بقوله: "لو شاء اللّه ألّا يُنزِلَ عليَّ قرآناً من عنده، وألّا أُبلِّغَكم به، ما أنزلَهُ، وما تَلَوتُهُ عليكم، ولا أعلَمَكم اللّه به. لكنّه نزلَ، وأرسلَني به، وتلوتُه عليكم كما أمرَني"[2].

دَلالةُ الجملةِ الشّرطيّةِ المفتتحةِ بـ﴿لَّوۡ﴾:

لو شاءَ اللّه عدمَ تلاوتِه ﷺ للقرآنِ، ما استطاعَ ذلك دون المشيئةِ

قولُه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ جوابٌ حَملَ معه استدلالًا جَليًّا على أنَّه ﷺ مُرسَلٌ منَ اللّه تعالى، وأنَّه لم يَختلقِ القرآنَ من عندِه، بدليلٍ التفَّتْ في مطاويهِ أدلَّةٌ، وقد نُظِّمَ فيه الدَّليلُ بانتفاءِ نقيضِ المطلوبِ على إثباتِ المطلوبِ؛ إذ قولُه: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ﴾ تقديرُه: لو شاءَ اللّه أنْ لا أَتلوهُ عليكم ما تَلَوْتُهُ، فجاءَ إثباتُ المطلوبِ في تلاوةِ القرآنِ عليهم مُعتمِدًا ومُرتكِزًا على عَدَمِ مشيئةِ اللّه تعالى، في نَفيِ تلاوتِه، فكانَ تحقيقًا وتأكيدًا على أنَّ تلاوةَ الرَّسولِ للقرآنِ عليهم، هو بمشيئةِ اللّه وحدَه[3].

سرُّ مجيءِ السِّياقِ بأسلوبِ التَّأكيدِ:

التّأكيدُ أنَّ القرآنَ من عندِ اللّه إبطالٌ لدَعوَى أنَّه من عندِ غيرِه

جاءَ النّظمُ الجليلُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ تعقيبًا على زعمِ الكفّارِ أنَّ القرآنَ الكريمَ ليسَ من عندِ اللّه تعالى، فجاءَ البيانُ الإلهيُّ بإبطالِ دَعواهم تلكَ ابتداءً وإثباتًا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/119.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 288.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/120.

لدَعواه مآلًا، فأمّا الابتداءُ فبتقدير: (لو شاءَ اللّه أنْ لا أَتْلوَه عليكم ما تلوتُه)، فبُنِيَ الاستدلالُ على عدَمِ مشيئةِ اللّه نفيَ تلاوتِه، تأكيدًا بأنَّ القرآنَ من عندِ اللّه، وأمّا الثّانيةُ؛ وهي إثباتُ دعواه في المآل، فبتقدير: (لو شاءَ اللّه ما تَلَوتُهُ لكنَّني تَلَوتُهُ عليكم)، فتلاوتُه دليلُ تأكيدٍ في إثباتِ الرِّسالةِ تتضمَّنُ إعجازَ القرآن، وأنَّه من عندِ اللّه، إذْ لو لم يكنْ ذلكَ كذلكَ، فأنَّى لرجلٍ أُمِّيٍّ لم يكنْ من أهلِ العلمِ أن يتقنَ القراءةَ والكتابةَ، فضلًا عنِ البلاغةِ، ثمّ أنْ يأتيَهم بكتابٍ رأسٍ في العلمِ والحكمةِ والبلاغةِ، لو اجتمعَتْ جُهودُ بُلَغاءِ وفُصَحاءِ الخَلْقِ كلِّهم، لكي يأتوا، ولو بآيةٍ قصيرةٍ مثلِه، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا[1].

نكتةُ حذفِ مفعولِ المشيئةِ: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾:

جاءَ فعلُ المشيئةِ في قوله تعالى: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ بلا مفعول، وتقديرُه: لو شاءَ اللّه أنْ لا أَتلوَه عليكم ما تَلَوتُه، فإنَّ مفعولَ المشيئةِ إنَّما يُحذَفُ إذا وقعَتْ شرطًا، وكانَ مفعولُها مضمونَ الجزاءِ، ولم يكنْ في تعلُّقِها به غرابةٌ، والمُستَلزِمُ للجزاءِ هنا، وهو عدمُ تلاوتِه ﷺ للقرآنِ عليهم، إنَّما هو مشيئتُهُ تعالى له، لا مَشيئتُه لغيرِ القرآن، والمعنَى: أنَّ الأمرَ كلَّه مَنوطٌ بمشيئتِهِ تعالى، وليس للرّسولِ الأكرم ﷺ منه شيءٌ قطُّ، فكأنّه يقول: ولو شاءَ عدمَ تِلاوتي له من تِلقاءِ نَفسي؛ بل لو لم يُنزِلْه عليَّ ولم يأمُرْني بتلاوتِهِ - كما يُنبِئُ عنه إيثارُ التِّلاوةِ على القراءةِ - ما تَلوتُهُ عليكم[2].

لا يبرزُ زمانُ الوحي ولا رسولُه إلّا بمشيئةِ اللّه وأمرِهِ

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿تَلَوۡتُهُۥ﴾:

لكلمةِ ﴿تَلَوۡتُهُۥ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ﴾ منَ الوَقعِ ما ليس لغيرِها؛ لأنَّها تتضمَّنُ عناصرَ الإرسالِ الثّلاثةَ: (التّالي

انفساحُ اللّفظِ لمعانٍ دلاليّةٍ مُتعدّدةٍ، تستوعبُ الغرضَ بشموليّةٍ ودقّةٍ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/120.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/120.

والمُتلوّ والباعث)؛ فبالأوّل: تُشيرُ إلى معجزةِ المقدرةِ على تلاوةِ الكتابِ مع تحقُّقِ الأُمِّيَّة؛ لأنَّ أُسلوبَ الكُتُبِ الدِّينيَّةِ غيرُ الأسلوبِ الَّذي عرَفَه العربُ من شُعرائِهم وخُطبائِهم، وهو يقوم على ثقافةٍ شفويّةٍ محضة، أساسُها الحفظُ، وقوامُها الذّاكرةُ المستنسخةُ لكلّ ما تسمعُه الأذنُ، أو تجودُ به القريحةُ، ومع أنّ الرّسولَ ﷺ كان أمّيًّا لا يقرأُ ولا يكتبُ، إلّا أنّ اللّه ألهمَه منَ العلم ما جعلَه أعلمَ البشرِ قاطبةً، وقد أوتِي جوامعَ الكلمِ، وخُصَّ بالبيان البليغِ، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النّساء: 113]، وبالثّاني: تُشيرُ إلى القرآنِ الَّذي هو معجزةٌ دالَّةٌ على صِدقِ الآتي به، لِما فيه منَ الحقائقِ والإرشادِ الدِّينيِّ الَّذي هو من شأنِ أنبياءِ الأديانِ وعلمائِها، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩﴾ [العنكبوت: 48 - 49]. وبالثّالث: تُشيرُ إلى أنَّه كلامٌ من عندِ اللّه تعالى، فانْتظمَتْ بهذا الاستدلالِ دَلالةُ صدقِ النَّبيِّ ﷺ في رسالتِه عنِ اللّه تعالى.

والتِّلاوةُ: قراءةُ المكتوبِ أوِ استعراضُ المحفوظِ، فهي مُشعِرَةٌ بإبلاغِ كلامٍ من غيرِ المُبَلِّغ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل الماضي ﴿تَلَوۡتُهُۥ﴾:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل الماضي ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ﴾ دونَ المضارع؛ لأنّه لمّا علّقَ التّلاوةَ بمشيئة اللّه تعالى كان نفيُ الفعلِ الماضي دالًّا على أنّ الحدثَ لم يكن ليكونَ من أصلِه، فتكونُ التّلاوةُ ليسَت واقعةً، ولو جاء النّفيُ بالمضارع لكان المرادُ أنّه لم يشأِ الدّوامَ، فيكونُ المنفيُّ هو الدّوامَ، وهذا ليس المرادَ، إذ إنّه أرادَ أن

لـو شـاء اللـه تعـالى لـم تقـعِ الـتّـلاوةُ مـن أصلِها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/121.

يقولَ أنّ اللّه تعالى لو شاءَ لم يقع فعلُ التّلاوةِ أصلًا، فكان التّعبيرُ بالماضي لذلك.

براعةُ الاستدلالِ:

التّلاوةُ دليلٌ على تميّز الرّسالةِ، بإعجازِ المتلوِّ، وصِدقِ التّالي

في هذا الجوابِ البليغِ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ استدلالٌ بليغٌ على أنَّ محمَّدًا ﷺ مُرسَلٌ منَ اللّه تعالى، وأنَّه لم يَختلِقِ القرآنَ من عندِه، وقد تبيَّنَ في الوجوهِ البلاغيَّةِ الثَّلاثةِ السّابقةِ، ما يوضِّحُ حقيقةَ أنَّ القرآنَ وَحيٌ منَ اللّه تعالى على رسولِه ﷺ، وأنْ ليس للرَّسولِ ولا لغيرِه أيُّ يدٍ في تأليفِ هذا القرآنِ ونظمِه المعجزِ، وجاءَ قولُه: ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ تأكيدًا لتلكَ الحقيقة، فالتِّلاوةُ هنا دليلُ الرِّسالة؛ لأنَّ تلاوتَه تتضمَّنُ إعجازَه، إذْ جاءَ به من لم يكنْ له سبيلٌ للعلمِ والمعرفةِ، لا من تلقاءِ نَفسِه ولا من تلقاءِ غيرِه، وقد عرفَ القومُ ذلكَ، وعايَشوهُ، وعايَنوهُ في شخصيَّةِ محمَّدٍ ﷺ، عن قُربٍ مُصاحبةٍ، ومخالطةِ جِوارٍ، حتَّى بلغَ أربعينَ سنةً من عُمُرِه بين ظَهرانيهم على هذه الشّاكلة، فلمّا جاءَ بكلامٍ أَعجَزَ أهلَ اللُّغةِ والفصاحةِ والبلاغةِ والبيانِ، على تَفاوتِ مراتبِهم، وتبايُنِ مناهلِهم، قالوا ما قالوا منَ الافتئاتِ عليه، والتَّزويرِ لحقيقتِه، والتَّكذيبِ لدعوتِه! إذْ لو كانَت حالتُه بعدَ الوَحي حالًا مُعتادًا، وكانَت بلاغةُ الكلامِ الَّذي جاءَ به كذلك، لكانَ له من المُقدِّماتِ من حينِ نشأتِه ما هو تَهيئةٌ لهذه الغاية، وكانَ التَّخلُّقُ بذلكَ أطوارًا وتدرُّجًا، فلا جَرَمَ أنْ دلَّ عدمُ تشابُهِ الحالَين على أنَّ هذا الحالَ الأخيرَ حالٌ ربّانيٌّ مَحضٌ، وأنَّ هذا الكلامَ موحًى إليه من عندِ اللّه ليس له بذاتِه عملٌ فيه.

فما كانَ هذا الكلامُ دليلًا على المشركينَ وإبطالًا لادِّعائِهم إلّا لِما بُنيَ على تلاوةِ القرآنِ، فكانَ ذكرُ القرآنِ الكريم في الاستدلالِ هو مناطُهُ، وله أَبلَغُ الأَثَرِ في تأكيدِ رسالتِه ﷺ وإبطالِ

محاولاتِ المشركين في النَّيلِ من رسالتِهِ، والاستهانةِ بمعجزتِهِ، وإزهاقِ دَعوتِهِ[1].

نكتةُ الإلماحِ في: ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾:

قوله تعالى: ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ فيه إيماءٌ إلى بُعدِ الكافرينَ عنِ الحقِّ، وتمكُّنِ الضَّلالِ من أفئدتهم، إذ لو نظروا إلى أنّ الجمعَ بينَ الأُمِّيَّةِ والإتيانِ بهذا الكتابِ البديعِ، في بلاغتِه ومعانيه، لا يكونُ إلّا حالَ مَن أفاضَ اللّه عليه رسالتَه، وأنزلَ إليه معجزتَه، وأمرَه بتلاوةِ كتابِه، ولم يكُ من قبلُ في عيشِه بينَهم وتقلُّبِه في أحوالِه معهم على شيءٍ من ذلك البتَّة، وهو قد صدحَ بقوله للمكذِّبين بما مفاده: "لقد عشتُ طوالَ عمري معكم، ولم تكن لي قوّةُ بلاغةٍ، أو قوّةُ شِعرٍ، أو قوّةُ أدبٍ، فمَن له موهبةٌ لا يكتمُها إلى أن يبلغَ الأربعين، ورأيتم أنّه ﷺ لم يجلس إلى معلِّم، بل عندما اتّهمتموه وقلتم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النّحل: 103] فضحَكم الحقُّ سبحانَه بأنْ أنزلَ في القرآن قولَه تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النّحل: 103]، ولم يخرجِ النّبيُّ ﷺ من شبه الجزيرةِ العربيّةِ، ولم يقرأ مؤلَّفاتِ أحدٍ، فمن أين جاء القرآنُ إذن؟"[2]، وكيف يتأتّى لِمن هذا حالُه أنْ يطالعَهم ما بينَ عَشيَّةٍ وضُحاها بهذا الكتابِ الَّذي فيه منهجُ حياةِ الفردِ والأُمَّةِ، والمُتَّسم بالتّوازنِ والتّكاملِ في أحكامِه وحِكَمِه، وقد أخبرَهم بخبرِ مَن قبلَهم، ونبأِ من بعدَهم، وبغيوبٍ منَ الماضي السَّحيقِ، والمستقبلِ القريبِ والبعيدِ، ممّا لا يمكنُ أن يتاحَ، لولا أنَّ اللّه أخبرَ محمَّدًا ﷺ بذلك كلِّه، فتلاه عليكم وأعلمَكم به[3]؟!.

الجمعُ بين الأُمِّيَّةِ والبلاغِ المُتفرِّدِ معجزةٌ في حدِّ ذاتِها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/120 - 121.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/5805.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/123.

دلالةُ التّعبيرِ بشِبهِ الجملةِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، جاءَ شِبهُ الجملةِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ تعبيرًا على أنَّ مشيئةَ اللّه تعلَّقت بتلاوةِ رسولِ اللّه ﷺ القرآنَ على المشركين، والتَّقديرُ: فلو شاءَ اللّه عدمَ تلاوتي له عليكم ما أنزلَه عليَّ، وما أَمَرَني أنْ أَتلوَه عليكم، فلو شاءَ لم يُنزلْه عليَّ، ولم يأمرْني بتلاوتِه عليكم، فأنا لم أَتْلُه عليكم من تلقاءِ نفسي، إنَّما هو أمرُ اللّه لي أنْ أَتلوَه عليكم؛ لأنَّكم أنتُمُ المقصودونَ بتلاوتِه عليكم ودِرايةِ ما فيه[1].

تعلُّقُ مشيئةِ اللّه بتلاوةِ القرآنِ على المشركين وجودًا وعدمًا

إيثارُ الإضمارِ: ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ﴾ بهاءِ الضَّميرِ، دونَ التَّصريحِ بالاسمِ الظّاهرِ، وهو القرآن، وذلكَ لذكرِه في الآيةِ السّابقة، بقولِه تعالى: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾، وفي ذلكَ كذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ الّذي أَتْلوه عليكم بمشيئةِ اللّه، هو نفسُه القرآنُ الَّذي تطلبون منّي – بغيرِ وجهِ حقٍّ – أنْ آتيَ بغيرِه أو أبدِّلَه.

عودُ الضَّميرِ على ماتقدَّمَ من ذكرِ القرآنِ أغنَى عن إعادتِه

فائدةُ تعليقِ التّلاوةِ بالمشيئةِ:

في قولِه تعالى: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، بيانٌ أنَّ مثلَ هذا الكتابِ العظيمِ المُعجزِ الَّذي لم يأتِ على يدِ مَن علَّمه إيّاه منَ البشر؛ بل جاءَ على من لم يتعلَّم ولم يَتَتَلمَذْ على أحدٍ؛ بل لم يُطالعْ كتابًا، ولم يَخُطَّ كلمةً واحدةً، ولم يُمارسْ مجادَلةً ولا محاورةً ولا مُناظَرةً علميَّةً مع أحدٍ من قبلُ، إنَّما ذلكَ كلُّه يُنبِئُ بالضَّرورةِ أنَّه لا يكونُ إلّا على سبيلِ الوحيِ هبةً من اللّه خالصةً، ليس فيها شِرْكٌ من أيِّ طَرَفٍ، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: 48]، وذلك على خِلافِ ما كانَ لبعضِ الأنبياءِ خاصَّةً من بني إسرائيلَ فقد كانوا

اقتضَتْ مشيئةُ اللّه تعالى أن يُصطفَى نبيُّه ﷺ لاستقبالِ الوحي وبلاغِه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642.

يتعلَّمون ويتناقلون ما تعلَّموه ممَّن سبقَهم منَ الأنبياءِ من كتُبِهم وصحائفِهم، قبلَ أن تُسنَدَ إليهم مهمَّةُ الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ[1].

دَلالةُ العطفِ مع النَّفي: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾:

جاء قولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ بحرفِ النَّفي عطفًا على قولِه تعالى: ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: لو شاءَ اللّه ما أَمَرني بتلاوةِ القرآنِ عليكم ولا أَعلَمَكُمُ اللّه به[2]؛ "والمعنى: أنّه الحقُّ لا شكَّ فيه، لو لم أُرسَل به أنا لأُرسِلَ به غيري. وحاصل المعنى: أنّ الأمرَ بمشيئة اللّه لا بمشيئتي، حتّى أجعله على نحو ما تشتهون"[3]، وإرادةُ اللّه غالبةٌ على كلِّ البشرِ، لا يتأبّى عليها غاشمٌ بجبروته، ولا كافرٌ بجحودِه، ولا مُنكِرٌ بنكرانِه؛ لأنّها تسري على الخلقِ كلِّهم، لا ينفكُّ عنها أحدٌ، ولا يعجزُها شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

عــدمُ الإعــلامِ بــالــقــرآنِ هو بمشيئةِ اللّه تعالى

دلالةُ التّعبيرِ بالدّراية، وكونها على لسانِ نبيٍّ أمّيٍّ:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الدّرايةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ إظهارًا للمعجزة؛ فالدِّرايةُ بمعنى العلم، والمعنَى هنا في بيانِ لو شاءَ اللّه ما تَلَوْتُه أنا عليكم، ولو شاءَ اللّه ما أَنزلَه عليَّ وما أَوحى به إليَّ، ولا أَعلَمَكُمُ اللّه به، ولا أَخبرَكم بما فيه، ولو شاءَ اللّه لأَعلمَكم به بلا واسطة، ولكنَّه تعالى يمنُّ على مَن يشاءُ من عبادِه، فخصَّني بهذه الكرامةِ، ورآني أهلًا لها دون سائرِ النّاس، فما أنا إلّا مُبلِّغٌ عن ربِّي مُعجزتَه إليكم، ولا أُعلمُكُم إلّا بما أَعلَمنيه ربِّي دون زيادةٍ أو نقصانٍ، قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشّورى: 52][4].

الــرَّســول ﷺ مُبلِّغٌ عنِ اللّه، لا يعلمُ شيئًا مـنَ الـوَحـي إلّا بتعليم اللّه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/226.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/122.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/458.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، والعكبريّ، التّبيان: 2/26.

توجيهُ القراءاتِ، وأثرها في المعنى:

رُسـوُّ المعـنى باختلاف القراءةِ الّتي تسهمُ في انسجامِ السّياقِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ قراءتان متواترتان[1]: الأولى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ بحرف النَّفي عطفًا على ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: لو شاءَ اللّه ما أَمَرني بتلاوةِ القرآنِ عليكم، ولا أَعلَمَكُمُ اللّه به. والثّانيةُ: (وَلَأدراكم به) بلامِ ابتداءٍ، بالقَصْرِ على الإيجاب، في موضعِ (لا) النّافية؛ أي: بدونِ ألِفٍ بعدَ اللّام، فتكونُ هنا عطفًا على جوابِ (لو)، فتكونُ اللّامُ لامًا زائدةً للتّوكيدِ كشأنِها في جوابِ (لو)، والمعنَى عليه: لو شاءَ اللّه ما تَلَوتُه عليكم، ولو شاءَ لَجَعلَكم تَدرونَ معانيَهُ فلا تُكذِّبوا، أو يكونُ المعنَى: ولَأَعلَمَكُم به من غيرِ قراءتي عليكم[2].

دَلالةُ الفاءِ في: ﴿فَقَدۡ﴾:

تعليلُ استحالةِ تلاوتِه بلا وَحيٍ، بالاستشهادِ لا بالاستدلال

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾ مُصدَّرًا بالفاءِ التَّفريعيَّةِ الَّتي تفيدُ التَّعليلَ، وهو تعليلٌ للملازمةِ المُستَلزمةِ لكونِ تلاوتِه بمشيئةِ اللّه تعالى وأَمرِه حسبما تقدَّمَ في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، لكنْ لا بطريقِ الاستدلالِ عليها بعدمِ تلاوتِه ﷺ فيما سبقَ بسببِ مشيئتِه تعالى إيّاه؛ بل بطريقِ الاستشهادِ عليه بما شاهدوا منه ﷺ في تلكَ المدَّةِ الطَّويلةِ منَ الأمورِ الدّالَّةِ على استحالةِ كونِ التِّلاوةِ من جهتِه ﷺ بلا وَحيٍ منَ اللّه ﷻ[3].

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ التَّحقيقِ (قد) في: ﴿فَقَدۡ﴾:

المبالغةُ في تبرئتِه ﷺ ممّا طلبوا منه، دليلٌ على صدقِ ما تلاه

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾ مُصدَّرًا بحرفِ التَّحقيقِ؛ وذلكَ لإفادةِ المبالغةِ في التَّبرئةِ ممّا طلبوا

(1) القراءةُ الأولى للجمهور، والثّانية لقُنبل عن ابن كثيرٍ بلا خلافٍ عنه، وقرأَ البِزِّيُّ بالوجهين، قال أبو عمرو الدّاني في التَّيسير، ص: 121: "قُنبل: (ولَأَدْراكم به) بغير ألفٍ بعداللّام، وكذلك روى النَّقّاش عن أبي ربيعة عنِ البزِّيّ، وبذلك أَقرأني أبو القاسم عنه، والباقون بالألف". يُنظر: ابن خلف، العنوان في القراءات السّبع، ص: 104، وابن مهران، المبسوط في القراءات العشر، ص: 199، وعبد الفتّاح القاضي، البدور الزّاهرة، ص: 141.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، والعكبريّ، الإملاء: 2/26، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/25.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/130.

منه، وقد عاينوا أحوالَه معهم منَ الصِّدقِ والأمانةِ وغيرِها من محاسنِ الأخلاقِ، ولم يُخبِرْهم بخبرِ السَّماءِ لا بوَحي ولا بغيرِه[1]، "ولـمّا كانَ ذِكرُ ذلك أتبعَهُ السّببَ المُعَرِّفَ به فقال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾"[2].

دَلالةُ التفريعِ: ﴿فَقَدْ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ مُصدَّرًا بالفاءِ التَّفريعيَّةِ الَّتي تفيدُ التَّعليلَ على جملةِ الاستدلالِ: ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾، هو تفريعُ دليلِ الجملةِ الشَّرطيَّةِ ومُلازَمتِها لِطرفَيها؛ والمعنَى: قد أقمتُ بينكم أربعينَ سنةً قبلَ نزولِ القرآنِ يافعًا وكهلًا، فلم تعرفوني متعاطيًا شيئًا من نحوِه، ولا قدَرتُ عليه، ولا كنتُ مُتواصفًا بعلمٍ وبيانٍ، فتتَّهموني باخْتراعِه، فكيفَ أَتْلو عليكم كتابًا هو من وَحيِ اللّٰه لي، لولا أنَّ اللّٰه تعالى هو الَّذي شاءَ أن أَتْلوَه عليكم، فتعلموا ما فيه من أوامرَ ونواهٍ وعلومٍ وأخبارٍ، عمّا سلفَ، وعمّا هو آت[3].

الـدَّلـيـلُ الـبـيِّنُ على ثُبوتِ نبوَّةِ مـحـمَّـدٍ ﷺ، وأنَّ الـقـرآنَ معجزةُ الله إلى خَلْقِه

دلالةُ الإخبارِ باللُّبثِ: ﴿لَبِثْتُ﴾:

اللُّبْثُ معناه الإقامةُ في المكانِ مُدَّة، والعُمُرُ: الحياةُ، اشتُقَّ منَ العُمران؛ لأنَّ مدَّةَ الحياةِ يُعمِّرُ بها الحيُّ العالَمَ الدُّنيَويَّ، ويُطلَقُ العُمُرُ على المدَّةِ الطَّويلةِ الَّتي لو عاشَ المرءُ مقدارَها لكانَ قدْ أخذَ حقَّه منَ البقاء، وهذا هو المرادُ هنا بدليلِ تنكيرِ ﴿عُمُرًا﴾، وليس المرادُ لبثتُ مُدَّةَ عُمُري؛ لأنَّ عُمُرَه ﷺ لم يَنْتَه؛ بل المرادُ: مُدَّةٌ قدرُها قدرُ عُمُرٍ مُتعارَف؛ أي: بقدرِ مُدَّةِ عُمُرِ أحدٍ من النّاس؛ والمعنى هنا: لبثْتُ فيكم أربعينَ سنةً قبلَ نزولِ القرآن، تطَّلعونَ على أحوالي، ولا

الاسـتـقـامـةُ في فترة الأشدِّ دليلٌ على نبل الخُلُقِ وكرم المحتدِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/25، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/122.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/88.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229 - 230، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/89.

يَخفَى عليكم شيءٌ من أسراري، وما سمعتُم منِّي حَرفًا منَ القرآن، ولا عرَّفَكم به أحدٌ من أَقربِ النّاسِ إليَّ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل الماضي: ﴿لَبِثْتُ﴾:

تحقيقُ اللّبثِ أوثـقُ صلـةً بسياق التّأكيدِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ تحقيقًا للمعنى، فجرى السّياقُ على التّأكد في هذا الاستدلالِ، فكان التّعبيرُ بالماضي أنسبَ لهذا التّأكيد، فالقطعُ بأنّ النّبيَّ ﷺ لابثٌ فيهم، هو موطنُ الاحتجاج.

نكتةُ التّنكيرِ في: ﴿عُمُرًا﴾:

السّيرةُ الصّالحةُ مع طول العمرِ دليلُ الصّدقِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ التّنكيرِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ لِما في التّنكير من دلالةٍ على التّكثير؛ "أي: فقد مكثتُ بين ظهرانيكم عمرًا طويلًا من قبله، وهو أربعونَ سنةً لم أتلُ عليكم سورةً من مثله، ولا آيةً تشبهُ آياتِه، لا في العلمِ والهدايةِ، ولا في البيانِ والبراعةِ"[2].

فائدةُ الإخبارِ عن حال الرَّسولِ ﷺ بعد البعثةِ وقبلها:

عمرُ رسولِ الله ﷺ تـهـيـيءٌ واجـتـبـاءٌ، ثـمّ تكليفٌ بالبلاغ وأداءٌ

الحالُ الأولى عبَّر عنها بيانُ اللّه تعالى بقولِه: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾؛ أي: أربعونَ سنةً أقمتُ فيها بينَكم، هي حالُ الأُمِّيَّةِ لم يقرأْ فيها رسولُ اللّه ﷺ ولم يكتبْ، ولم يطالعْ فيها الكُتُبَ السّالفةَ، ولم يناظرِ العلماءَ، ولم يحاورْ أهلَ البلاغةِ والخطابةِ والشِّعرِ، ثمَّ انتقلَ إلى الحالةِ الثّانيةِ، وهي حالةُ الوحيِ والدَّعوةِ، إلى هذا الكتابِ البديعِ في بلاغته ومعانيه، أفاضَ اللّه عليه به، وكلَّفَه برسالته إلى النّاسِ جميعًا، ولولا أنَّ اللّه أمرَه بتلاوته عليهم ما تلاه، ولا علموا شيئًا منه، وإنَّما هو الوَحيُ الصّادقُ منَ اللّه[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/25، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/89، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/122.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/79.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229 - 230، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/643.

براعةُ الاستدلالِ: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾:

تـنـزّل الـقـرآن بـمـشـيـئـةِ الـرّحـمـن، و لا يقدرُ عليه إنسٌ ولا جانٌّ

لَما كانَ قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾ تعليلًا للملازمةِ المُستلزِمةِ لكونِ تلاوته بمشيئةِ الله وأمرِه، عَوْدًا على قولِه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾، فجاءَ هذا البيانُ هنا استدلالًا بعدمِ تلاوتِه ﷺ فيما سبقَ بسببِ مشيئتِه ﷻ، ولكنَّه استدلالٌ قائمٌ على طريقِ الاستشهادِ عليها، بما شاهدوا منه ﷺ في تلكَ المدَّةِ الطَّويلةِ منَ الأمورِ الدّالَّةِ على استحالةِ كونِ التِّلاوةِ من جهتِه ﷺ بلا وَحي، وما يتَّبعُ ذلك من عدمِ درايتِهم بما تَضمَّنه هذا القرآنُ من عقيدةٍ وشريعةٍ وأخلاقٍ[1].

دَلالةُ الظّرفِ، وصلتُه بشبه الجملة:

المصاحبةُ ميدانٌ لمعرفة خُلُقِ الرّجلِ وبيانِ صدقِه

في قولِه: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾: (قَبْلُ) ومعها (بَعْدُ) تأتي للدَّلالةِ على الظَّرفيَّة، وإذا أُضيفا للذَّواتِ كانَ المرادُ بعضَ أحوالِ الذّاتِ، ممّا يدُلُّ عليه المَقامُ؛ أي: من قبلِ نُزولِ القرآنِ، أي: في المدَّةِ الَّتي قضاها رسولُ الله ﷺ فيهم، و ﴿فِيكُمۡ﴾ تُفيدُ الظَّرفيَّة؛ أي: في جماعتكم؛ أي: بينَكم[2]، "فمَن نظرَ في حال محمّدٍ ﷺ قبلَ الرّسالةِ وبعدَها، ومَن طالعَ وجوهَ هذه الآياتِ السّماويةِ الّتي نزلَت عليه، لم يقم عنده أدنى شكٍّ في أنّ محمّدًا ﷺ هو رسولُ الله، وأنّ ما يُحدِّثُ به عن الله هو من عندِ الله، ومن كلماتِ الله.."[3].

دلالةُ: ﴿مِّن﴾:

اللّبثُ المحتجُّ به عليهم مُقيّدًا بالزّمن السّابقِ لنزول القرآنِ

أدخلَ النّظمُ المعجزُ حرفَ الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾؛ للدّلالة على ابتداء القبليّة، فلمّا "كان عمرُهُ لم يستغرقْ زمانَ القَبلِ قال: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾ مقدارَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/643.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/122.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/974.

أربعينَ سنةً"[1]، فالعمرُ الّذي لَبِثَهُ فيهم مُقيَّدٌ بالزّمان السّابقِ لنزول القرآنِ، وليس لمطلقِ القبليّةِ؛ لأنّه لا حاجةَ لمطلقِ القبليّةِ هنا، فالاحتجاجُ جاء لتوثيق نزولِ القرآنِ منَ اللّه تعالى؛ "أي: منْ قبلِ نزولِ القرآن لا أتعاطى شيئاً ممّا يتعلَّقُ به لا من حيث نَظمُهُ المُعجِزُ ولا من حيثُ معناهُ الكاشفُ عن أسرارِ الحقائقِ وأحكامِ الشّرائعِ"[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بالاستفهامِ والفاءِ والنّفي في: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

جمعَ النّظمُ الجليلُ الاستفهامَ والنّفيَ والفاءَ في تركيبٍ واحدٍ ﴿أَفَلَا﴾، فأدخلَ الاستفهامَ الإنكاريَّ على الفاء التّفريعيّة فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ تفريعًا على جملةِ الشَّرط، وما تفرَّعَ عليها بصيغة الاستفهام، وهو تفريعٌ للإنكارِ والتَّعجُّبِ على نُهوضِ الدَّليلِ عليهم، إذْ قد ظهرَ من حالِهم ما يجعَلُهم كمَن لا يَعقِلُ[3].

إنكارُ حالِ المشركين والتّعجُّبُ من سفاهاتِهم دليلٌ على أنَّهم لا يعقلون

سرُّ استعمالِ فعلِ العقلِ في: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

آثرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بلفظ العقلِ فقال جلّ شأنُه: ﴿تَعْقِلُونَ﴾؛ لأنَّ العقلَ هو أوَّلُ درجاتِ الإدراك، والمعنى: أفلا تعقلونَ أنَّ مثلَ هذا الحالِ منَ الجمعِ بين الأُمِّيَّةِ والإتيانِ بهذا الكتابِ البديعِ في بلاغته ومعانيه لا يكونُ إلّا حالَ مَن أفاضَ اللّه عليه رسالتَه، إذْ لا يتأتَّى مِثلُهُ في العادةِ لأحدٍ، ولا يتأتَّى ما يُقاربُه إلّا بعدَ مُدارسَةٍ ومُطالعةِ الكُتُبِ السّالفةِ، ومُناظَرةِ العلماءِ، ومُحاورةِ أهلِ البلاغةِ منَ الخُطباءِ والشُّعراءِ زَمنًا طويلًا وعُمرًا مَديدًا، فكيف تأتَّى ما هو أعظمُ من ذلكَ المعتادِ دفعةً واحدةً لِمن قضَى عُمُرَه بينَهم في بلادِه يعايشونَه ويَعرفونَ أحوالَه وأسرارَه، ويَرقبون تقلُّباته صباحَ مساءَ، وقد خلَتْ ديارُهم ممَّن يزاولُ العلومَ، وما أقامَ فيهم من

العقلُ الحصيفُ يُفضي إلى إدراكِ الدّليلِ على النُّبوَّةِ الصّادقةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/89.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/130.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/122.

أهلِ الكتابِ مَن يُعلِّمُهم ما في كُتبِهم من شريعةٍ وأخلاقٍ وأخبارٍ وعِظاتٍ؟ أَفَلا تكونونَ عاقلين فتعرفوا أنَّ مثلَ هذا الحالِ لا يكونُ إلّا من وَحيٍ صادقٍ مُنزَّلٍ من عندِ اللّه؟[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(شاءَ) و(أرادَ):

المشيئةُ من اللهِ الإيجادُ، والإرادةُ العزمُ على الفعلِ أوِ التَّركِ

الإرادةُ: هي العزمُ على الفعل أوِ التَّركِ بعدَ تَصوُّرِ الغايةِ المترتِّبةِ عليه من خيرٍ أو نفعٍ أو لذَّةٍ ونحوِ ذلك، والإرادةُ تكونُ لِما يَتراخَى وقتُه ولِما لا يتراخَى، وأمّا المشيئةُ فهي إيجادُ الشَّيءِ وإصابتُه لِما لم يتراخَ وقتُه، فهي منَ اللّه تعالى تعني الإيجاد، والشّاهدُ أنَّكَ تقولُ: فعلتُ كذا شاءَ زَيدٌ أو أبَى، وذلكَ إنَّما يكونُ عندَ محاولةِ الفعل، وكذلكَ مشيئتُه إنَّما تكون بدلًا من ذلكَ في حالِه، وعلى هذا فالإرادةُ أخصُّ منَ المشيئة؛ لأنَّ المشيئةَ ابتداءُ العَزمِ على الفعل، فَنسبتُها إلى الإرادة نسبةُ الضَّعفِ إلى القوَّة، والظّنِّ إلى الجَزْم، فإنَّك ربَّما شئتَ شيئًا ولا تُريدُه لمانعٍ عقليٍّ أو شرعيّ، وهذا في حقِّ النّاس، وأمّا الإرادةُ فمتى حصلَتْ صَدَرَ الفعلُ لا محالَةَ، وقد يُطلَقُ كلٌّ منهما على الآخَرِ توسُّعًا[2].

(لَبِثَ) و(مَكَثَ):

اللّبثُ الإقامةُ بالمكانِ مع الملازمةِ له، والمُكثُ ثباتٌ مع انتظار

لَبِثَ بالمكانِ: أقامَ به مُلازمًا له، قالَ تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: 14][3]، واللّبث في القرآن الكريم يرتبطُ بالزّمن غالبًا؛ لأنّه لا معنى للبث بلا ظرفٍ، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: 42]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالَ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: 259].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/26، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/89، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/123.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 35، والرّاغب، المفردات: (رود)، والكفويّ، الكلّيّات: 1/105، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 130.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (لبث).

والـمُكثُ: ثباتٌ مع انتظارٍ، قالَ تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النّمل: 22]. والتَّمكُّثُ: التَّلَبُّثُ[1]، وهو الاستقرارُ المطلقُ في المكان؛ أي: هو استقرارٌ غيرُ مُحدَّدٍ بأمدٍ، وقد وردَ في القرآن في مَواضعَ منها قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: 106]، وقوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النّمل: 22]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [القَصص: 29]، وقد آثرَ السّياقُ في هذه الآيةِ استعمالَ لفظِ (اللّبث)؛ لأنّه أبلغُ في التّعبير عنِ المعنى المراد.

وإنّما آثرَ التّعبيرَ في الآية بـ(اللّبث)؛ لأنّه أقامَ فيهم مُلازِمًا لهم وصحبَهم ذلك العمر على طولِهِ، ولم يعبّرْ بـ (المكث)؛ لأنّه لم يكنْ في إقامتِه هناك مُنتظِرًا، فكان الواقعُ يقتضي التّعبيرَ بما جاءَ في الآية.

(1) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (مكث).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»